صورة مي زيادة عند جبران خليل جبران "الشعلة الزرقاء أنموذجا"

May Ziadeh's photo by Khalil Gibran's creativity, "The Blue Flame as a "Model

د .نجلاء برهمي

جامعة طاهري محمد بشار

(الجزائر)

nejlabarhmi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/16 تاريخ القبول: 2020/10/30

ملخص:

القارئ لرسائل (الشعلة الزرقاء) يدرك أنها تختلف عن رسائل الحب التي راجت في الأدب العربي، فمن خلالها صور جبران شخصية مي ، ولامس روحها بأنامل أدبية فاحصة ، فكانت رسائله بمثابة عيادة نفسية دخلتها مي لتودع فيها عالمها الخاص ، فكان جبران الخبير المتمرس الذي كشف عن روح مي المتراوحة بين الانطلاق و الانكسار ، وعن شخصيتها المبدعة بوصفها امرأة فاعلة في وقت فقدت فيه المرأة ملكية لسانها للتعبير و الإبداع بحكم الأعراف الجائرة و العادات البالية.

الكلمات المفتاحية:الصورة ؛ المرأة ؛ مي زيادة؛، جبران ؛ الطبيعة ؛ الألم.

Abstract :

The reader of the messages (the blue flame) understands that it differs from the love letters that were popular in Arab literature, through it Gibran, portrayed Mey's character, touching her soul with literary close scrutiny, and his messages were a psychiatric clinic Mey entered to bid farewell to her private world, so Gebran was the experienced expert, and he revealed the soul of Mey varying between starting and breaking, and her creative personality as an active woman at a time when women lost their ability to express themselves and be creative by virtue of unfair and obsolete customs.

KeyWords: photo; woman; Mey Ziada; Gibran; nature; pain

المقدمة:

يشكل موضوع المرأة محورا مهما من محاور فلسفة الإبداع عند العرب ، إذ كشف المبدع العربي من خلاله عن صورة المرأة متغنيا بجمالها و مثمنا لأفكارها ، باحثا عن لغز شخصيتها في كهوف نفسيتها ، فوقف عند فرحها و شقاءها و رضاها و غضبها و حبها و كرهها و إنتصاراتها و إنكساراتها ، و القارئ المتمعن لصورة المرأة في متون الأدب العربي قديما و حديثا يدرك أن صورتها التي حملت بريق الجمال ، تخفي معالم التهميش و المعاناة التي عانت منه المرأة ، فجميعها يغض الطرف عن الدور الإيجابي الذي أدته على مدار تاريخها ، مكتفية بتسليط الضوء على جمالها متجاهلة مكانتها الإجتماعية و السياسية و الأدبية فقد وجه الخطاب " مسار الملفوظ اللغوي نحو وجه خاص ، تحكم الذكور فيه و خلدوه عن طريق نقشه و حفره في ذاكرة الحضارة العربية ".[1]

ولا أبالغ إذ حكمت على الأدب العربي الذي صور المرأة بأنه رجعي و هو حكم يستند على أساس ما جاد به الخطاب الأدبي العربي ، الذي أدمن على وضع المرأة موضع المقابل لرجل جسديا و فكريا ، فهي دوما الأنثى الجميلة الناقصة العقل و الدين و هو الرجل الذي له حق السيادة وذلك بحصانة الأعراف و التقاليد و مباركة رجال الدين و الفكر ، كما أن الخطاب الأدبي ساهم في تقزيم مكانة المرأة و دورها ، وذلك باستثمار جمالها الجسدي المادي ، إذ أضحت أيقونة جمالية يوظفها الأدباء (شعراء و كتاب) لممارسة فعل الغواية و الإثارة في المتلقي و ذلك تحت مسميات الرمز و التوظيف الفني حتى لا يقع المبدع في تهمة الإغراق في توظيف الجانب المادي و الفحش في الخطاب .

و الحق أن المرأة قد أهينت من طرف المبدعين العرب و صارت المرأة إنسانا من الدرجة الثانية ، فالمبدع يتلذذ بانحرافها ، فيسبح به خياله ليحولها إلى سلعة منتهكة ينتقل بها من فراش إلى فراش ، فيمرغها في عالم مدنس غارق في وحل الرذيلة ، و إذا رفع من شأنها فإنه لن يزيد عن تأكيد وظيفتها الإنسانية الأزلية بوصفها الأم و الزوجة التي لا تترك بيتها و أولادها لتساهم في عالم الفكر و السياسة ، فكأني بالمبدع العربي يكرس فكرة أن الرجل هو مركز الإهتمام و محور المجتمع فهو دوما البطل المفكر و المرأة ذات تابعة له ، إلا أنني و أنا أنقب على صورة المرأة في الأدب العربي وجدت إستثناءا شق عصا طاعة القلم العربي ، كان قلم جبران خليل جبران الدي كانت له رؤية مميزة لصورة المرأة و مكانتها .

و لقد اخترت من جملة مؤلفاتهرسائله إلى مي زيادة ، التي جمعت في كتاب " الشعلة الزرقاء " و تأتي أهمية هذه الرسائل من عدة نواحي أهمها أنها سلطت الضوء على مي زيادة المرأة الروح و الفكر ، إذ كان جبران عصفورا وحيدا يغرد خارج سرب الأدباء العرب ، إذ نظر إلى المرأة بوصفها ذاتا إنسانية مبدعة تحتاج إلى جرأة لتتخطى حواجز الأعراف و التقاليد بكسر القيد النفسي الذي عقل لسانها على الخوض في ضروب الأدب شعرا و نثرا و هو ما نستشعره في خطابه لمي قائلا " إن مقالاتك هذه تبين سحر مواهبك و غزارةإطلاعك و ملاحة ذوقك في الإنتقاء و الإنتخاب و الترتيب ، و علاوة على ذلك فهي تبين بصورة جلية ، إختباراتك النفيسة الخاصة و عندي

أن الإختبار أو الإقتناع النفسي فوق كل علم و كل عمل ، وهذا ما يجعل مباحثك من أفضل ما جاء من نوعها في اللغة العربية " [2]

كل كلمة في هذا النص مخضبة بمداد الإعجاب بأدب مي، فهو يشيد بموهبتها الأدبية التي تنم على غزارة ثقافتها و جودة ذوقها و رقي أسلوبها ، فقد أماط جبران اللثام عن روحها التواقة للإبداع و التجديد ، و ثمن مباحثها النقدية التي رأى أنها فريدة من نوعها في مباحث اللغة العربية " فالجديد الذي تمكنت المرأة الكاتبة من تحقيقه للأدب العربي المعاصر – على عدة مستويات ... مستوى التراكم و الأجناس الأدبية و الجرأة في الكتابة – لا يمكن حصره ، و ذلك من خلال كتاباتها في مواضيع لم تكن مطروحة من قبل ." [3]

مقاربة نقدية في صورة مي زيادة عند جبران من خلال رسائله

لقد كانت رسائل جبران خليل جبران رسائل حب أشبه بحمامات روحية ، قطعت المسافات و طوتها من بلاد الغرب لتصل لأديبة فنانة بالغة الداتية و الشجن تربعت على عرش أدب الأنوثة في المشرق ، ففي هذه الرسائل ترجم جبران حبه لمي بطريقة فريدة ، كيف لا و هو الأديب الحكيم الذي مارس على الكلمة العربية تعويذة الجمال القائمة على مراوغة المعاني المحنطة ، إذ بث فيها روحه المتمردة ، فأضحت الكلمة عنده ماردا ولودا لدلالات تأنف عن السطحية و التقريرية ، لذلك لا تخلو هذه الرسائل من لمحة فلسفية رائعة للحب و للمرأة ، تجعل القارئ يفكر تفكيرا عميقا في كل سطر من سطورها ، بشكل يجعله يعيد النظر في مكانة المرأة و الصورة التي كرست لها ظلما و بهتانا و التي تصب كلها في معاني الضعف و العجز و المتعة.

و القارئ لرسائل (الشعلة الزرقاء) يدرك أنها تختلف عن رسائل الحب التي راجت في الأدب العربي ، فمن خلالها صور جبران شخصية مي ، و لامس روحها بأنامل أدبية فاحصة ، فكانت رسائله بمثابة عيادة نفسية دخلتها مي لتودع فيها عالمها الخاص ، فكان جبران الخبير المتمرس فكشف عن روح مي المتراوحة بين الإنطلاق و الإنكسار و عن شخصيتها المبدعة بوصفها امرأة فاعلة في وقت فقدت فيه المرأة ملكية لسانها للتعبير و الإبداع بحكم الأعراف الجائرة و العادات البالية ، كما أنه رصد الجانب الخفي في شخصية مي إذ كانت تروج لنفسها صورة المرأة المتحررة المنطلقة ، في حين كشف جبران أنها تخفي شخصية المرأة الشرقية المحافظة ، محفوفة بحفظ الألقاب (حضرة الأديبة الفاضلة ماري ، حضرة الآنسة ماري ، زيادة المحترمة) ، و ما إن تطورت العلاقة بينهما بدأت لغة الخطاب تأخذ منحنى المكاشفة و نزع التكليف راح يخاطبها " بصديقتي مي " و لا يخفى ما لهذه الكلمة من دلالات روحية و عاطفية كلها تصب في باب الحب و الود و تقدير الآخر .

لطالما آمنت بأن الصورة التي يقدمها الآخر هي أكثر صدق و وضوح من الصورة التي يعطيها المرء لذاته و مادمنا في مقام الحديث عن صورة مي في عين جبران كان لابد من التنويه بأن تصويره لها كان بعيدا عن المداهنة و المحاباة المحفوفة بعواطف التودد ، إذ كان يتودد إليها مشاهير الفكر و الأدب من أبناء عصرها ، فقد رأى فيها العقاد الوجه المخالف لصورة المرأة العربية السائد في عصره فأحذه الإعجاب كل مأحذ ، لكنه لم يستطع تجاوز رؤية الرجل الشرقي للمرأة ، فهي مبعث سروره و منبع الجمال عنده ، فصور العقاد مي تصويرا لا يخلو من

المبالغة و المجاملة إذ تماهت صورتها مع غيرها من النساء المشهورات في الأدب العربي ، فلم تخرج مي عنده من عبـأة بثينة و ليلى و ولادة و غيرهن ممن شغفن رجال الأدب و الفكر حبا ، دون أن يؤدي هذا الحب إلى التغني بأدبهن و فكرهن .

لذلك تمعنت مي عنه و صدته ، فصدمت رجولته و كبرياءه المتعالي ، فقد كان يتحاشى ذكر مكانتها الأدبية فحين يتحدث عن ندواتها العلمية التي كانت تنظمها في صالونها الأدبي بحضور إعلام الفكر و الأدب لا يثمن ما تضمنته تلك الندوات من أفكار و ما أثارته من رؤى نقدية ،إنما راح يفسر إقبال رجال الفكر و الأدب على ندواتها بتهافتهم على طلب ودها و حبها ، لأنها امرأة جميلة متحررة تخالف صورة المرأة العربية آنذاك المحجبة و المضروب عليها طوق الحجر بدعوى أنها فتنة ، يقول العقاد " كم كان زوار تلك الندوة العالمية ، و كم كان كتاب الرسائل منها و إليها ، إنني أعد منهم غير مرة نحو الثلاثين أكان هؤلاء عشاق ؟ من هؤلاء تصطفيه مي إذا أجابت جواب المحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدعيه ؟ "[4] ، فهي عنده امرأة وحسب ، شأنها شأن جميع النساء الجميلات ، و كأنه بذلك ينتقم منها لتمنعها عنه كتابيا ، بتغييبها فكريا و إستحضارها طيفا جسديا عابرا ، و في هذا المعنى يقول عبد الفتاح الديدي : " يبدو أن هذه الفتاة – يقصد مي – لعبت دورا في حياة العقاد لأنها أعطته السعادة ، و ما لم يكن يخطر له على بال أنها وقفت أمامه ندا لند ، فصدمت رجولته و سطوته و كبرياءه و أحلام العقاد ، بفرديتها و إستقلالها و شبابها المتأنق المدرك لأصول العلاقات .." [5]الأمر يختلف كثيرا مع جبران ، فقد استحضر صورة مي من مدخلي الروح و العقل ، تبعا لطبيعته الذهنية و الروحية التي تملي عليه رؤية الأمور في عمقها و ليس على مستوى الحواس المادية ، فعينه لم تر مي قط فهو لم يلتقيها في حياته ، إنما عرفها عبر كتاباتها الأدبية التي وجدت لنفسها ممرا إلى عقل جبران ، فهام قلبه حبا لفكرها و روحها فكان بحق حبا ملائكيا قلما يتكرر .

فكانت علاقته بمي علاقة روحية سامية أثارت إلهامه الإبداعي و جعلته يحلق بعيدا في عالم الروح بعيدا عن عالم الحواس ، و من خلال تحليقه هذا كشف عن ذات مي الخفية التي تعمدت إخفاءها في كتابتها الأدبية خوفا من رقابة العرف و التقاليد الشرقية الرابضة على روحها ، فها هو يخاطبها بلغة تماهت فيها الحدود بين الفلسفة و الأدب قائلا : " ... أهرب إلى مكان بعيد في البرية و في جيبي دفتر صغير – وسوف أبعث إليك بشيء من هذا الدفتر يوما ما . هذا كل ما أعرفه الآن عن " أنا " فلنعد إن شئت إلى موضوعنا المهم ، لنعد إلى حبيبتنا

الحلوة : كيف حالك و كيف حال عينيك ...؟ و هل أنت سعيدة في القاهرة مثلما أنا سعيد في نيويورك ؟ و هل تمشين ذهابا و إيابا في غرفتك بعد منتصف الليل ؟ و هل تقفين بجانب نافذتك بين الآونة و الأخرى و تنظرين إلى النجوم ؟ و هل تلتجئين بعد ذلك إلى فراشك و هل تحففين إبتسامات ذائبة في عينيك بطرف لحافك ...أفكر فيك يا ماري كل يوم و كل ليلة ، أفكر فيك دائما و في كل فكر شيء من اللذة و شيء من الألم و الغريب أنني ما فكرت فيك يا مريم إلا و قلت لك في سري ' تعالي و اسكبي جميع همومك هنا ، هنا على صدري

و في بعض الأحيان أناديك بأسماء لا يعرف معناها غير الآباء المخلصين و الأمهات الحنونات . و ها إني أضع قبلة في راحة يمينك و قبلة ثانية في راحة شمالك طلبا من الله أن يحرسك و يباركك و يملأ قلبك بأنواره أن يبقيك أحب الناس إلي ."[6]

و أنا أقرأ هذه الرسالة أدركت سر تعلق مي بجبران على الرغم من أنها لم تره قط ، لقد أعجبت بعفة كلماته و جمال روحه ، فهي من خلال رسائله : امراة رقيقة الإحساس شفافة العواطف ، و هو ما جسدته عبارة " حبيبتنا الحلوة " ، لذلك كان حريصا في إنتقاء الكلمات في خطابه لها ، فصاغ لها احلى الكلام و بثها أحر الأشواق ، كما أنه كرر سؤاله لها " و هل انت سعيدة " و في هذا إشارة واضحة أن مي كانت تصارع في صمت أهوال الغربة دون ان يكون لها سند من العائلة ، و كأني بها تعاتبه لبعده عنها لذلك حاول في هذه الرسالة أن يفهمها أنه قريب منها روحيا على الرغم من بعد المسافات ، فراح يرصد حركاتها بكل دقة لا يغادر الصغيرة و الكبيرة و كأنها أمام ناظريه ، ثم يختم خطابه بكلمات هادئة تداخلت فيها العواطف الانسانية ، ففي لحظات تحول جبران من حبيب عاشق إلى أب حنون يحاول إنتشالها من مخالب الغربة و يبعد عنها هواجس الخوف و الشعور بالوحدة ، فيدعوها للخلود للنوم لأنه سكينة يهجع فيها الجسد مسلما الروح إلى عوالم الهدوء بعيدا عن ضجيج المشاعر و أبخرة الحياة التي تحتفل بهزيمة الإنسان ، ثم يعاملها بمثل ما يعامل الأب إبنته التي تعذر عنها النوم فيقبل يديها و يدعوا لها بالرعاية الإلهية.

لقد كانت الرسائل المتبادلة بين جبران و مي ودائع نفسية مشاعة ، فكانا في خطابهما صفحة مكشوفة للقراء ، فقد كشفت تلك الرسائل عن عالم مي النفسي ، فبعد سلسلة من الرسائل التي إلتزمت فيها محراب المحافظة و الوقار، و اتخذت قرارا يتمثل في عدم البوح بمشاعرها لجبران ، نجدها تعلن عن حبها له ، إعلانا إختلطت فيه معالم العواطف بين الخجل والجرأة و الإندفاع والندم ، قائلة " جبران ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ولكني أعرف أنك محبوبي وإني أخاف الحب كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط فيه؟ الحمد لله أنني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به لأنك لو كنت الآن حاضرا بالجسد لهربت خجلا من هذا الكلام ولا إختفيت زمنا طويلا فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى ."[7]

من خلال هذه الرسالة تؤمن مي أن القلم يتربع على عرش كتمان الأسرار ، فهو – أي القلم – لم يفرط في هذا الواجب حتى قررت بمعيته التعبيرعن مشاعرها التي كانت يوما ما حبيسة جدران وجدانها و رهينة قيد عقلها ، فقد تراءت لنا مي بوصفها المرأة الشرقية التي تخشى سياط القيود الاجتماعية ، فهي في خطابها الإعترافي تحتمي بالخجل والكبرياء وهو ما نستشفه في قولها " الحمد لله أنني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به... " ، وهذا سر من أسرار تعلق جبران بها ، فكانت بالنسبة له الوطن المتربع في الشرق بكل ما يحمله من زخم روحي أخلاقي.

ولقد أفلح جبران في دفع مي إلى التعبير عما يختلج في نفسها من عواطف ، لذلك نجده يتلقى خطابها الأخير بكثير من الغبطة التي نتحسسها من خلال حرارة الكلمات التي كانت تناغم بين الإفصاح بالحب والدخول بمي في مساءلات حول فلسفة الحب ، يقول : " تقولين لي أنك تخافين الحب لماذا تخفين يا صغيرتي؟

أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مد البحر؟ أتخافين مجيئ الربيع ؟ لماذا يا ترى تخافين الحب ؟ أنا أعلم أن القليل في الحب لا يرضيك ، كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضيني ، أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل ، نحن نريد الكثير، نحن نريد كل شيء ، نحن نريد الكمال ، أقول يا ماري إن في الإرادة الحصول ، فإذا كانت إرادتنا ظلا من أظلال الله فسوف نحصل بدون شك على نور من أنوار الله لا تخافي الحب ماري ، لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي علينا ان نستسلم إليه على الرغم مما فيه من الأم والحنين والوحشة ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة ."[8]

لا غريب أن يصدر هذا النوع من الكلام عن الحب من أديب مارس قلم الفلسفة على أمور الدنيا ، فهو يحاول أن يهدأ من روع مي المحافظة الشرقية إلى النخاع بعد أن غافلها لسانها مراوغا حاجز خجلها وكبريائها ، فباحت بسر حبها لجبران ، لذلك كان يكرر عبارة لا تخافي ، فالحب عنده كائن هلامي خفي التجلي ، فسيح المعاني لذلك شبهه بظواهر الطبيعة الطاغية التي جمعت بين جمال التجلي وعظمه الفعل ،(نور الشمس ، مد البحر، مجيء الربيع) فقد تميزت هذه الرسالة عن غيرها من الشعلة الزرقاء في أنها كشف عن جانبين في شخصية مي :

فالأول: إن مي امرأة حالمة تمجد العواطف ولا تقيم للماديات وزنا ، لهذا تميزت هذه الرسالة بجمالية الكلمة التي تقمصت التصوير ثوبا ، فأجاد جبران رصد الأحاسيس الجارفة ، وارتقى بها في مصافي الحب الصوفي الطاهر، وهو ما يعكسه قوله (ضلا من أضلال الله) ، فقد عجزت دنيا الأرض الممتد بين مصر ونيويورك على إستيعاب هذا الحب الكبير ليرتفع الى عرش الروح ، فهو ملاذه ، وهو ما أوحى به من خلال قوله (أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل نحن نريد الكثير، نحن نريد كل شيء ، نحن نريد الكمال .)

وأما الثاني : إن مي الرغم من إعترافها بحبها لجبران هي امرأة محافظة ، ترفض أن تكون زائرة عابرة لقلب جبران شأنها في ذلك شأن النساء الأخريات اللواتي أحترقن بلهيب حب جبران ، لهذا نجده يذكرها أن الحب وإن كان ساميا إلا أنه يبعث الألم والحنين والوحشة ، و في هذا إشارة منه لدعوتها للصبر عليه ، فهو و إن كان رجلا شرقيا ، فقد ذاق من رحيق التحرر نتيجة عيشه في الغرب وتأثره بعاداتهم وفلسفتهم في الحياة التي لا تقيم للعادات أو الدين وزنا لهذا نجدها في رسالتها المذكورة أنفا تقول : " ولكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب " فمي كانت تخاف من عواقب حب جمعها برجل عرف بكثرة علاقاته مع النساء ، ولعلي في هذا المقام أستأنس بما قاله الروائي الجزائري واسيني الأعرج عن علاقة مي بجبران " إن مي زياده شمت رائحة في جبران انه رجل نسوان " [9] ، كما أورد تصريحا خطيرا على لسان مي في روايته الأخيرة ليالي إيزيس كوبيا ، إذ تقول مي في لحظة إعتراف تأرجحت فيها بين ضعفها النفسي وقوتها الفكرية والأدبية " جبران سحرني بلغته كان يريدني قريبة منه ، بينما هو في جزء مني ، لكني رفضت أن أكون رقما في حديقة نسائه ، لو قادني القدر نحو ذراعي جبران كنت طحنته بغيرتي ، وافترقنا بسرعة بشكل بائس وحزين ، وحقد لا يمحى ، نعم أنا سيدة الأقدار الحارقة ، و رجل نشأ في الحرية ومات فيها لا يمكنه أن يدرك حرائقي مهما تواضع معي ، كان سندي وصديقي وأخي الذي لم تلده أمي ، وحبيبي وموته دمرني ". [10]

كما كشفت رسائل جبران لمي عن امرأة عربية حرة شرقية تقيم للعادات والواجب وزنا ، فهي وإن تمردت أو دعت إلى تحرر المرأة كان ذلك في أطر محدودة دون أن تتخلص من ثوب الحياء والكبرياء وعزة النفس، وهو ما عبر عنه في قوله مخاطبا لها : "قد فكرت في تلك الشهور الخرساء التي مرت بدون خطاب ولا جواب ولكنه لم يخطر على با لي كونك شريرة."[11]

كما كشفت الرسائل عن محاولة مي لتنميه ذوقها الفني ، من خلال النقد المتبادل بينها وبين جبران ، فقد حفزها هذا الأخير على تجاوز مرحلة النقد الى مرحله الإبداع ، فدعها الى مداعبة الكلمة ومراوغتها بلاغيا و فلسفيا حتى تبوح لها بسحرها الدلالي المترامي ، على نحو ما يتجلى في قوله : " سلام على روحك الطيبة الجميلة ، وبعد فقد استلمت اليوم أعداد المقتطف التي تفضلت بإرسالها إلي فقرات مقالاتك الواحدة أثر الأخرى وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد ، ولقد وجدت في مقالات سرب من تلك الميول والمنازع التي طالما حامت حول فكرتي و تتبعت أحلامي ، ولكن هناك مبادئ ونظريات وددت لوكان بإمكاننا البحث فيها ، فلو كنت الساعة في القاهرة لاستعطفتك لتسمحي لي بزيارة فنتحدث مليا في أرواح الأمكنة وفي العقل و القلب .... غير أن القاهرة في مشارق الأرض ونيويورك في مغاربها وليس من سبيل الى الحديث الذي أوده و أتمناه ... ولكن لي سؤال أستأذنك بطرحه لديك و هو هذا : ألا يجيء يوم يا ترى تنصر فيه مواهبك السامية من البحث في مآتي الأيام إلى إظهار أسرار نفسك و إختباراتها النفسية الخاصة و مخبآتها النبيلة ؟ أفليس الابتداع أبقى من البحث في المبدعين ؟ ألا ترين أن نظم قصيدة أو نثرها أفضل من رسالة في الشعر و الشعراء ؟ إني كواحد من المعجبين بك أفضل أن أقرأ لك قصيدة في ابتسامة أبي الهول تهبني شيئا نفسا ذاتيا ، أما بكتابتك رسالة في تاريخ الفنون المصرية فإنك تدليني على شيء عمومي عقلي ."[12]

لقد كشف جبران من خلال هذه الرسالة أن مي كانت واقعة في حيرة بين شخصيتها الأدبية المتمكنة ونفسيتها المتحررة المكبوتة بفعل الأعراف ، فهي تحمل ذاتين ،ذات تواقة إلى الإبداع والظهور وذات مقموعة تخشى الخوض في ضروب الإبداع المترامية الأطراف بدعوى احتكار الفكر الرجولي لها ، والدليل على ذلك الكلمة التي وجهتها الى وجهاء الأدب والفكر ممن كانوا يلتفوا حول مجلسها الأدبي حيث تقول : " في مصر تشتعل شرارة الحياة وإلا فماذا يعني وقوفي بينكم أيها السادة ، وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تاما وتشجيعا قويا وتفكيرا عميقا أتكلم الآن بحرقة وكأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال ، و تستمعون إلي بإشفاق ، كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور ، النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء و الصوت الخافت الذي لم يتعود إلا همس الطاعة و تمتة التمرد المبهم ، يرتفع الآن آتيا من بعيد من عمق اعماق الدهور السوداء ... صارخا " ايها الرجل لقد أدلتني فكنت ذليلا ، حررني لتكون حرا حررني لتحرر الإنسانية ."[13]

لقد وجدت مي نفسها المبدعة المفقودة من خلال مرسالاتها مع جبران ، ففي صالونها الأدبي و إن كانت تحظى بشرف الاستماع إليها من قبل رجال الأدب و الفكر إلا أن الكثير منهم كان يستمع إليها بوصفها امرأة تخطت حواجز العرف السائد ، الذي كان ضد ظهور المرأة بكل أشكاله اجتماعيا و أدبيا و فكريا ، إلا أن جبران

علمها أن الكتابة عند المرأة هي علامة وعيها و رقيها ، فقد دخل جبران عالم مي الأدبي فوجده ساكنا هادئا ، فدعاها إلى أن تتحررمن سكونه و تدخل في شغب الإبداع و محارب الفلسفة حتى يكتسب أدبها صفة التمرد و الابتكار ، فلقد استطاع أن يكون الأقرب لما يدور في نفسها ، فوضعها ضمن المرأة الإنسان بنوازعها و عواطفها ، كما وضعها ضمن المرأة الأدبية فخاطبها باللغة التي تليق بمقامها الأدبي .

أثر رسائل جبران في توجيه أدب مي:

لقد تميزت رسائل الشعلة الزرقاء بإشراقات روحية مفتولة بمذاق النقد ، حيث انصهرت لغة جبران النقدية بذات مي الأدبية المترفعة عن المادة ، فرحنا نطير بأجنحته لنحط على ربوع أدبها ، دونما تهويل و لا مداهنة إنما برؤية نقدية فاحصة ، لقد جذب أسلوب مي الرشيق و الشيق شغف جبران النقدي ، إذ نجده يقول : " سلام على روحك الطيبة الجميلة و بعد فقد استلمت اليوم اعداد المقتطف التي تفضلت بإرسالها إلي ، فقرأت مقالاتك الواحدة اثر الاخرى ، و انا بين السرور العميق و الاعجاب الشديد ، و لقد وجدت في مقالاتك سربا من تلك الميول و المنازع التي لطالما حامت حول فكرتي وتتبعت احلامي "[14]

إن أول ما يلفت النظر في كلام جبران هو حضوره القوي في تكوين شخصية مي الادبية فمن خلال مرسلاته لها دفعها الى ان تمارس تأثيرها الابرز في الساحة الادبية العربية ، إذ شجعها على الخوض في مواضيع الفلسفة و المجتمع و السياسة بكثير من الجرأة ، فها هو يدعوها إلى تحرير قلمها الادبي من قيد التأريخ لولوج عالم الإبداع المترامية و أن يحدوها في ذلك العمق الفكري و جمال اللغة و دقة الشعور ، يقول : " و لكن لي سؤال استأذنك بطرحه لديك و هوهذا : ألا يجيء يوم ما يا ترى تنصر فيه مواهبك السامية من البحث في مآتي الايام الى اظهار اسرار نفسك و اختباراتها الخاصة و مخبآتها النبيلة ؟ أفليس الابتداع ابقى من البحث في المبدعين ؟ ألا ترين ان انظم قصيدة او انثرها افضل من رسالة في الشعر و الشعراء ؟ إني كواحد من المعجبين بك أفضل ان اقرأ لك قصيدة في ابتسامة أبي الهول مثلا من ان اقرأ لك رسالة في تاريخ الفنون المصرية و كيفية تدرجها من عهد الى عهد و من دولة الى دولة "[15] ، لقد تركت آراء جبران النقدية بصمة على شخصية مي و أدبها ، و هكذا اصبحت مع الزمن فاتنة مبدعة تحلق في عوالم الذات الساحرة برؤى جمالية ، و اسلوب خلاب تعرف من خلاله مي كيف تجعل لفظها أنيقا ، لا يؤمن بالكتمان ، فقد اذنت له بالتعبير عن عواطفها التي تفوح بعبق الألم ، و ذلك بالارتماء في احضان الطبيعة ، تقول : " إننا قاصدون لبنان فهلم إليه ، و انتظرت السفر بفارغ الصبر طوال اسابيع ، دق قلبي ليذوب حنينا الى المياه ، و الى الجبال ، بل ان قلبي فارقني و اخاله افلت من صدري و سبقني الي اليم الفسيح ليتلاشى بين امواجه المضطربة ." [16]

نفهم مما تقدم ان مي كانت في نظر جبران ظاهرة ادبية و انثوية و نهضوية ، طفت على الساحة الادبية و الثقافية ، فلم يفوت فرصة استثمارها بتوجيهها ادبيا ،فأكد جدارة المرأة العربية في الخوض في ميدان الادب و النقد و الفلسفة و الاجتماع ، فحين اشتد ساعدها في النقد ، راحت تمارسه على كتابة "المجنون" و فيه عابت عليه التأثر الكبير بآراء الفيلسوف الالماني نتيشه ، و قد تلقى جبران هذا النقد بكثير من الغبطة و الإعجاب بدقته ، و كأنه مسرورا لأن جهوده في دفع مي للخوض في غمار الادب و النقد قد افلحت ، يقول " و المجنون ... و ماذا يا ترى اقول لك عن المجنون ؟ انت تقولين ان فيه ما يدل على (القسوة) بل وعلى الكهوف المظلمة ، و انا لم أسمع مثل هذا الانتقاد مع انني قرأت الكثير مما نشرته جرائد و مجلات امريكا و انكلترا في هذا الكتاب الصغير ، و الغريب ان اكثر الادباء الغربيين قد استحسنوا القطعتين ... اما انت يا صديقتي فقد وجدت فيهما القسوة ، و ماذا ينفع الانسان اذا ربح استحسان العالم و خسر استحسان مي ... اما استحسانك الرسوم الثلاثة في المجنون فقد سرني و دلني على وجود عين ثالثة بين عينيك وطالما قد عرفت ان وراء اذنيك آذان خفية تسمع تلك الاصوات الدقيقة الشبيهة بالسكوت ..." .[17]

نعم لقد أفلح جبران في فتح عبقرية مي على الإبداع و النقد و التجديد فيهما ، وقد ساعدها في ذلك سعة إطلاعها على الآداب العالمية و أنواع الفنون الأدبية ، و إتقانها لعديد اللغات ، فقد كانت قلماحرا في الأدب و نقده ، وهو ما جعل أنيس المقدسي يقول معجبا بسعة ثقافة مي " لا شك أن لمطالعتها الواسعة في مختلف اللغات أثرا بينا في توسيع آفاق الحياة الادبية أمامها ، يقول أمين الريحاني (أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيرا لا حد له) ، و لعل هذا هو السر في إتساع آفاق تفكيرها و إنفساح المدى أمامها " .[18]

لقد خرجت مي من مدرسة جبران أدبية مبدعة، لمع نجمها و لايزال ، فقد عالجت في كتابتها مواضيع كثيرة فكرية و فلسفية و فنية ، وما يميز أدبها بعد تعهد جبران لها بالنقد و التوجيه ، هو النزعة إلى الرومانسية ، إذ نجده في رسائله يشجعها على الارتماء في عوالم الطبيعة لتكون حاضنة أمينة لعواطفها المعجون برحيق الألم و الكآبة ، إذ نجده يقول مخاطبا

لها : " قد صرفت شهور الصيف في المنزل منفرد منتصب كالحلم بين البحر و الغاب ، فكنت كلما اضعت نفسي في الغاب أذهب إلى البحر فأجدها و كلما فقدتها بين الأمواج أعود إلى ظل الأشجار فألتقي بها ..."[19] ، لقد تمثلت فلسفة جبران الرومانسية التأملية في كتابتها الأدبية ، فبعدما كانت قبل رسائل جبران لها تميل إلى الدراسات التاريخية ، أصبحت بعدها أدبية حالمة تحلق عاليا في سماء الخيال المثمر و المعبأ بالعواطف الساخنة ، التي غازلت عوالم الكآبة و الالم من خلال معايشة الطبيعة و الحلول بها ، فها هي تقول " لقد ضرج الخريف اوراق الشجر ، بقبلته المريضة الحرة ، و نسيمه الرخو يردد انغامه ، محاولا تخفيف الكآبة ، السماء تبكي، العصفور يحن إلى الشاطئ و العشب يرتعش فوق الجبال و كأنه ارتعاش الجدول كل حين " .[20]

لقد إستطاعت مي بفضل توجيه جبران أن تصنع من لغتها شعرا ، تجاهد فيه جماليات القول لبناء قيمها الفكرية و الثقافية الخاصة بها ، لذلك خاطبت مي الحياة بمنطقها المتجدد فجسد إبداعها تراجيدية حياتية

رائعة تنقلت في فضاءات الكلمة ، فكانت نورسا يحلق فوق ضفاف المشاعر و الأفكار و القيم و الجمال ، و لإيمانها الكبير بواقعية الإبداع ، كانت حريصة على أن يحمل إبداعها اغوار نفسها ، فكان ابداعها مرآة تعكس كآبتها و المها ، و هو ما جعل شاعر الرومانسية العربية خليل مطران يعجب بديوان شعرها " أزاهير حلم " ، فيقول :" قرأت أزاهير حلم فتمثل لدي قفص من الذهب يتحرك في داخله و ينتقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح ، كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه و ينطلق منه الى الجو الفسيح لأنه لا يطيق الاحتباس و لا يقدر أن يكون سجينا في مكان ضائق بأمانيه في الحياة ."[21]

لقد صورت رسائل " الشعلة الزرقاء " أدب مي زيادة و ثقافتها و جمالها الروحي فأضحت بفضل جبران رمزا للمرأة العربية الطامحة إلى التطور و التجديد بعيدا عن معالم التهميش و الحجر ، الذي يمارس عليها بإسم الأعراف و التقاليد و الدين ، و قد أقلع جبران في تصويره لها عن الصورة النمطية للمرأة التي تتغنى بوصف النهود و الخدود ، بل أشاد بعبقريتها و إنسانيتها و عطائها و إنتاجها الأدبي و النقدي الثر.

قائمة المصادر والمراجع

1. جميل جبر. مي زيادة في حياتها و أدبها. المطبعة الكاثوليكية . بيروت .1960.
2. عبد اللطيف شرارة . مي زيادة . دار صادر . بيروت 1965.
3. أنيس المقدسي .الفنون الأدبية و إعلامها .دار العلم للملايين .بيروت.ط 2. 1978.
4. فاروق سعد . باقات من حدائق مي . دار زهير بعلبكي .بيروت .دط.
5. سيمون عواد . من أدب مي زيادة . دار عواد للطباعة و النشر . 1981.
6. واسني الأعرج . رواية ليالي إيزيس كوبيا . دار الآداب . بيروت المطبعة الثانية 2016
7. عبد الفتاح الديدي . عبقرية العقاد . دار القومية للطباعة و النشر .القاهرة .ط1.
8. الشعلة الزرقاء . رسائل جبران خليل جبران .تح . سلمى لحفار الكزبري. سهيل بشروني . الشعلة الزرقاء مؤسسة نوفل .بيروت . 1984.
9. عبد الله الغدامي . المرأة و اللغة . المركز الثقافي العربي .2006 .

مواقع الكترونية :

10. ندوة حول الرواية التاريخية. نشطها واسني الأعرج و الدكتور حسين حمودة . نقلا عن موقع اليوم السابع .www.youm7.com
11. رسالة مي لجبران بتاريخ 15 كانون الثاني 1924 نقلا عنموقع www.realface.me.com.
12. ينظر . حوار عبد الحق بن رحمون مع الروائي محمد شكري . جريدة الزمان .لندن .1987 ، نقلا عن موقع www.AZZaman.com

الهوامش:

1– عبد الله الغدامي . المرأة و اللغة . المركز الثقافي العربي .2006 .ص : 135

2– الشعلة الزرقاء . رسائل جبران خليل جبران .تح . سلمى لحفار الكزبري. سهيل بشروني . الشعلة الزرقاء مؤسسة نوفل .بيروت . 1984. ص : 32

3– ينظر . حوار عبد الحق بن رحمون مع الروائي محمد شكري . جريدة الزمان .لندن .1987 ، نقلا عن موقع www.AZZaman.com

4– عبد اللطيف الأرناؤوط . تأملات في رسائل الأدباء . الهيئة العامة السورية للكتاب . دمشق 2012. ص : 104

5– عبد الفتاح الديدي . عبقرية العقاد . دار القومية للطباعة و النشر .القاهرة .ط1.ص :201

6– الشعلة الزرقاء .جبران .ص : 35

7– رسالة مي لجبران بتاريخ 15 كانون الثاني 1924 نقلا عنموقع www.realface.me.com

8– الشعلة الزرقاء .جبران .ص : 40

9– ندوة حول الرواية التاريخية . نشطها واسني الأعرج و الدكتور حسين حمودة . نقلا عن موقع اليوم السابع www.youm7.com

10– واسني الأعرج . رواية ليالي إيزيس كوبيا . دار الآداب . بيروت المطبعة الثانية 2016

11– الشعلة الزرقاء .جبران .ص : 12

12– المصدر نفسه . ص :32

13– سيمون عواد . من أدب مي زيادة . دار عواد للطباعة و النشر .1981 .ص : 49

14– الشعلة الزرقاء .ص : 2

15– المصدر نفسه .ص : 3

16– فاروق سعد . باقات من حدائق مي . دار زهير بعلبكي .بيروت .دط . ص : 123

17– الشعلة الزرقاء .ص : 4

18– أنيس المقدسي .الفنون الأدبية و إعلامها .دار العلم للملايين .بيروت.ط 2. 1978. ص : 476

19– الشعلة الزرقاء .ص : 37

20– عبد اللطيف شرارة . مي زيادة . دار صادر . بيروت 1965 . ص: 30

21– جميل جبر. مي زيادة في حياتها و أدبها. المطبعة الكاثوليكية .بيروت .1960.ص :15